جامعة الشهيد حمه لحضر – الوادي

قسم العلوم الانسانية

مقياس : النشاط الفلاحي في الغرب الاسلامي

المستوى : السنة الأولى ماستر تاريخ الغرب الاسلامي

بقلم الأستاذ : سليم حاج سعد

المؤثرات الداخلية في اقتصاد المغرب الإسلامي

لم يشهد المغرب الإسلامي حالة من الاستقرار الدائم في اقتصاده ، بل ظهرت فيه العديد من التقلبات المختلفة بين الإزدهار والانهيار، وهذا راجع إلى تأثره بالعديد من العوامل الداخلية والخارجية الطبيعية والبشرية ، فكانت فترات القحط والمجاعات وارتفاع الأسعار وقلة أنواع الطعام حيث كان التأثير المباشر على حياة الناس، ومن بين الأسباب البارزة المؤدية لذلك كانت المؤثرات الداخلية ، مثل الخصائص الطبيعية والأوضاع الأمنية والسياسية، والتحول العمراني .

1 . الخصائص الطبيعية :

ومن بين أبرز الخصائص الطبيعية نجد التضاريس، والمناخ ، والكوارث الطبيعية، والتي أفرزت مجموعة من التأثيرات والظواهر الطبيعية ، والتي كثيرا ما تحكمت في اقتصاد المنطقة، وقد لاحظ ابن خلدون أثر الطبيعة على الإنسان وعلى نشاطه

الاقتصادي وحث على ضرورة "حسن الاختيار الطبيعي"[1]، خاصة عند بناء المدن ومراعاة توفر الشروط الطبيعية التي تضمن سير النشاطات الاقتصادية لارتباطها الوثيق بما توفره الطبيعة لها .

أ . السطح وتأثيره : يعد الموقع الجغرافي من العوامل البارزة التي تحدد أوجه النشاط الاقتصادي للسكان سواء كان زراعيا أو صناعيا أو تعدينيا أو تجاريا، (نظرية موقع النشاط الاقتصادي) ومنه تحدد القيمة الإستراتيجية للدولة وذلك من خلال ارتباطها بطرق المواصلات أو بعدها منها، كما أن مساحة المنطقة تكون عاملا على ازدهار النشاط الاقتصادي، وقد تكون معيقا له وذلك من خلال تنوع مظاهر السطح فيها من سهول وجبال وأنهار وصحاري.

بالاضافة إلى المسطحات المائية التي تمثل ميدانا لنشاط الإنسان الاقتصادي ، فهي تعتبر مصدرا هاما للثروة الحيوانية من أسماك وحيتان ولؤلؤ ومرجان ، كما أنها تلعب دورا كبيرا في تنقلات الإنسان ونقل منتجاته المختلفة من مكان لآخر.

ومنه فقد تمتع المغرب الإسلامي بتربة خصبة صالحة للزراعة خاصة في المناطق الشمالية كونها مجاري للأنهار، ففي ناحية المحيط الأطلسي تنبسط أراضي شاسعة سوداء خصبة، وأراضي الحمرة الكلسية التي تتميز بشدة الخصوبة وقابلية الإنتاج المستمر، هذا إضافة إلى كثرة المجاري النهرية والمسطحات المائية العذبة خاصة في المناطق المحاذية للبحر المتوسط والمحيط الأطلسي.

والسواحل التي توفر الثروة السمكية الهائلة

[1] المقدمة ، ص 352 ، 353

ب . المناخ وتأثيره : تتعدد تأثيرات في جميع نواحي الاقتصاد ، من وفرة المياه والرطوبة والحرارة وأثرها على نوعية النباتات والحيوانات، بل وحتى نوعية التربة .

ج . الكوارث الطبيعية :

تتنوع الكوارث الطبيعية التي أصابت بلاد المغرب الإسلامي عبر الفترة الزمنية الوسيطية بتنوع الخصائص الطبيعية وشساعة المساحة الجغرافية، ومن أهل تلك الكوارث التي أصابت المنطقة نجد :

- الزلازل : تكثر الزلازل في منطقة المغرب الإسلامي، حيث تصنف المنطقة ضمن المناطق ذات النشاط الزلزالي عبر العالم، هي مناطق تصادم الألواح التكتونية الكبيرة، ومن أمثلة ذلك نجد الزلزال الذي أصاب المغرب سنة 472 هـ والذي أدى إلى أضرار بالغة سواء على المحاصيل الزراعية أو البنى التحتية كالسواقي والجسور والموانئ والمصانع والمحلات وغيرها، وفي ذلك يقول ابن أبي زرع الفاسي : " ... وفي سنة 472هـ كانت الزلزلة العظيمة التي لم ير الناس بالمغرب مثلها، مدت البنيان ومات فيها خلق كثير ... وقعت الصوامع والمنازل...".

. السيول الجارفة : وهي تحث في أحيان كثيرة فترة سقوط الأمطار الغزيرة، وفي المناطق ذات التكوين الطبوغرافي المتنوع وكثير الانحدار، حيث تفيض الأنهار والوديان بشكل مفاجئ مكونة سيولا تكتسح المناطق السكنية والزراعية والتجارية، فتحطم وتجرف كل ما كان في طريقها مسببة أضرارا اقتصادية هائلة، ومثال ذلك ما حدث في طنجة سنة 532هـ، حيث كان السيل العظيم الذي

حمل الديار والجدر ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب.."[2]، ومن الأمثلة أيضا ذلك السيل الذي حدث سنة 882 هـ/ 1477م في مدينة غرناطة، والشيء الذي زاد من هول الكارثة هو حمله للحجارة المدمرة، وهو ما جعل المقري يعتبره عقابا من الله تعالى على مجاهرة الغرناطيين بالفسق والمنكر، فيقول في ذلك : " ... فبعث الله تعالى سيلا عرما على وادي حدره بحجارة وماء غزير كأفواه القرب، عقابا من الله سبحانه وتأديبا لمجاهرتهم بالفسق والمنكر ... "[3]، كما نجد إشارة عند المقري حين تكلم عن السيل الذي حدث بأحد ميادين غرناطة، وهذا عند استعراض فرق الجيش النصري في عهد السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري (868 – 887 هـ / 1464 – 1482م) ، عندما عانى الناس من هذا الحادث حيث يقول : " ... وهو يوم ختام العرض وكان معظم المتنزهين والمتفرجين بالسبيكة وما قارب ذلك، فبعث الله سيلا عارما على واد حدره بحجارة وماء غزير كأفواه القرب ..."[4].

الفيضانات : تحدث في العادة في المناطق المستوية إلى حد ما جغرافيا، حيث تتلف المحاصيل الجغرافية فترتفع أسعار السلع، كما جدث سنة 537 هـ ، فيقول ابن عذارى في هذا : " ... وفي سنة 536 هـ أكل وادي فاس عباب السلسلة وفتقت الجزيرة وأكل البحر طنجة إلى الجامع الكبير ... وبلغ الشعير في ذلك الوقت ثلاثة دنانير..".

---

[2] ابن عذارى

[3] المقري : **نفح الطيب** ، تحقيق يوسف الشيخ ، ج 5 ، ص 395 .

[4] **نفح الطيب** ، ج 4 ، ص 511 – 512. أحمد مختار العبادي : **الأعياد في مملكة غرناطة** ، ص 139.

غارات الجراد : تشكل هذه الحشرة خطرا كبيرا على المزروعات وحتى الأشجار خاصة في فترة الإنتاج ، وذلك مثلما حدث بمدينة أغمات حيث أباد المحصول، فشكا أهل أغمات لأحد الصالحين الذي دعا لهم ، فصرف الله عنهم ذلك الوباء.، كما تعرضت مدينة مراكش خلال أربع سنوات محاصيلها لإبادة الجراد ، فمحا فيها الجراد الأرض من زرع وكلأ ، فتأثرت حياة الناس ودخل الدولة.

الثلج والصقيع : يكثر الثلج والصقيع خاصة في فصل الشتاء وفي المناطق الشمالية المرتفعة عن مستوى سطح البحر ، وهو لا يكون في كل سنة بالكثافة التي تؤثر على مسار الحياة، لكن يحدث في بعض السنوات أن يسقط الثلث بكثافة أو أن يتكون الصقيع بكثرة مع البرودة الشديدة للجو، فتتأثر حياة الناس وتتقطع الطرق التجارية والملاحية، بل ويحبس الناس في بيوتهم دون غذاء، فتكون الخسائر شديدة على مستوى تربية الحيوانات والصيد وكذا بدرجة أكبر على مستوى الإنتاج الزراعي فتتلف المحاصيل وهي في بداية دورتها، كما تتأثر محاصيل الأشجار بشكل كبير، إضافة إلى تجمد المياه في كثير من المناطق، فتتعطل الصناعة أيضا.

الطاعون الأسود :

تعرضت بلاد المغرب والأندلس إلى الوباء الخطير الذي عرف بالحمى السوداء أو "الطاعون الأسود"[5] ، والذي اكتسح الشرق والغرب في نهاية النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي[6]، هذا الوباء

---

[5] عبد العزيز فيلالي : **تلمسان في العهد الزياني** ، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 253.

[6] Rachel arie .op , cit , p 396.

الذي انطلق من آسيا الصغرى سنة 735 هـ / 1224م ووصل إلى أوربا فاجتاح مناطق واسعة منها، وبدأت إصابات هذا الوباء تظهر في المدن الأندلسية والنصرانية الشمالية، فأودى بحياة الآلاف من العامة والخاصة[7]، ففي سنة 749 هـ / 1348م بدأت البوادر الأولى لهذا الوباء في بلاد المغرب[8] ثم برشلونة[9]، فأودى بحياة العديد من السكان، وفي نفس السنة أصاب مدينة ميورقة، ثم ظهر في ألمرية سنة 749هـ / 1348م ، وانتقل سنة750هـ/ 1349م إلى مدينة مالقة وغرناطة التي أصبح يموت فيها كل يوم أكثر من 100 مصاب، وهو الأمر الذي زرع الرعب في قلوب العامة والخاصة الذين فروا إلى المناطق البعيدة خوفا من هذا الوباء[10].

وقد كانت بدايته في آسيا الصغرى، وتحديدا في منطقة "الخطا" وهي بلاد الصين[11]، وهناك من الباحثين من ذهب إلى تحديد المنطقة بدقة وهي "بالكاش" شمال منغوليا[12]، وقد انتشر هذا الوباء عبر حركة التجار إلى

---

[7] أحمد عزاوي : **الغرب الإسلامي في أواسط القرن الثامن الهجري** – دراسة تاريخية لديوانيات ريحانة الكتاب لابن الخطيب ، جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية، القنيطرة ، 2008، ص 61.

[8] عبد العزيز فيلالي : **بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**، دار الهدى، عين مليلة، 2014، ص124.

[9] Rachel arie , op , cit , p 396.

[10] أحمد ثاني الدوسري : المرجع السابق ، ص 132.

[11] ابن خاتمة الأنصاري : **تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**، منشور ضمن كتاب محمد العربي الخطابي : **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية** – دراسة وتراجم ونصوص – دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، بيروت، 1988، ج 1، ص 173.

[12] محمد الأمين البزاز: **الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد16، 1991،ص109.

تركية والحبشة ومصر والشام[13]، ثم إلى موانئ البحر المتوسط وبلاد الفرنجة ثم شمال الأندلس وإفريقية ، حتى شمل كل بلاد المغرب الإسلامي[14].

وكان هذا المرض في العادة يظهر في الأحياء الشعبية من عامة المجتمع عندما تقل فيها أحيانا النظافة، حيث الأزقة الضيقة وتكدس بعض الفضلات، وكذا في المدن ذات الكثافة السكانية العالية[15] خاصة في مالقة وغرناطة وبلش وغيرها من المدن الأندلسية الأخرى[16].

ومن بين الذين عاصروا هذا الوباء الفتاك الطبيب الأندلسي ابن خاتمة الأنصاري[17] (770هـ / 1369م) في مسقط رأسه ألمرية، فأخذ يبحث في أسباب ظهوره وطرق الوقاية منه وعلاجه، وكيفية انتقاله بين الناس، فأخذ يسجل ملاحظاته ويشاهد أحوال العامة من المرضى والأصحاء مع إسداء النصائح ومحاولة مساعدة المصابين به[18]، ثم أعلن عن نتيجة بحوثه التي قدمها لأهل بلده بأن هذا المرض ينتقل من المريض

---

[13] ابن خاتمة الأنصاري : المصدر السابق، ص 173.

[14] ابن خلدون : **المقدمة** ، ص 38.

[15] يوسف شكري فرحات : المرجع السابق ، ص 133.

[16] Rachel arie , op, cit , pp 397 – 398.

[17] هو أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري أبو جعفر من أهل المرية، له مشاركة في الطب وكان كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا تصدر للإقراء بالجامع الأعظم بالمرية، له مؤلفات مهمة في الطب، توفي بالمرية سنة 770 هـ / 1368م. أنظر : ابن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، ج3، ص 239 – 259.

[18] محمد العربي الخطابي : **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية** – دراسة وتراجم ونصوص – دار الغرب الإسلامي، ط 1 ، بيروت، 1988، ج 1 ، ص 78.

إلى الشخص السليم بالملامسة والمجاورة، ومن ذلك ألف كتابا في هذا الوباء سماه " تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد "[19].

وبناءا على ذلك تجنب جزء كبير من المجتمع الأندلسي بعامته وخاصته، أكل لحوم الماشية التي وقع فيها الوباء وإتباع وسائل الوقاية مع التهوية الصحية في المنازل والغذاء الصحي، وتنظيم أوقات الحركة والسكون والنوم واليقظة[20]، والإكثار من شرب عصير الليمون والحصرم، وتناول أنواع معينة من الفاكهة كالتفاح والأجاص والرمان والسفرجل، والتين والعنب والتمور وكذا غسل الخضار جيدا قبل أكلها، مع تفضيل الجزر والكوسى بالإضافة إلى عزل المصاب بالوباء الكبير أو الطاعون خوفا من انتقال العدوى، وإحراق الأثواب وتطهير المكان بالبخور والكحول، وعدم الأكل في أطباق المريض[21].

وقد اهتم بهذا الوباء الطبيب الغرناطي محمد بن إبراهيم الأنصاري[22] المعروف بابن السراج، والذي كان يداوي الفقراء من العامة مجانا كما " ... عين ما يستفيده في الطب صدقة على المحتاجين وكان يؤثرهم ويخف إلى زيارتهم ويفدهم ويعينهم على معالجة عللهم ..."[23].

---

[19] ابن خاتمة الأنصاري : المصدر السابق.

[20] المرجع نفسه ، ص 155 ، 156.

[21] يوسف شكري فرحات : المرجع السابق ، ص 164.

[22] هو محمد بن إبراهيم بن روبيل الأنصاري المعروف بابن السراج أبو عبد الله، من أهل غرناطة وأصله من طليطلة، كان طبيب الدار السلطانية في عهد ثاني ملوك بني نصر، له معرفة بالعشب وتمييز أعيان النبات توفي سنة 730 هـ / 1330م . أنظر : ابن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، ج 4 ، ص 160 – 162.

[23] المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 160 – 162.

2 . الأوضاع الأمنية والسياسية :

الصراعات الداخلية : يكون تأثير الصراعات الداخلية في أي دولة واضحا بشكل كبير وخاصة بتأثيره في الاقتصاد، فكما يقول خبراء الاقتصاد بأن "رأس المال جبان"، فأصحاب الأموال يخافون من المناطق غير المستقرة والتي تسودها الحروب والصراعات لما قد يطالهم من السلب والنهب أو حتى القتل، هذا بالنسبة للتجارة، أما فيما يخص الفلاحة، فإن الحروب والصراعات تؤثر وبشكل مباشر على نشاطاتها الاقتصادية، فيهجر الفلاح أرضه ويتوقف مربي الحيوانات عن نشاطه، لما قد يطالهم من التخريب والاستيلاء.

ضغط القبائل العربية والبربرية : وهو ما قد يدخل ضمن الهجرات الداخلية التي تؤثر على مناطق النفوذ، أو حتى على نمط العيش وأشكاله، ومن الأمثل القوية التي حدثت في تاريخ الغرب الاسلامي نجد: هجرات الأعراب من بني هلال وبني سليم وغيرهم، وما أحدثوه من تغيرات كبيرة داخلية في نمط اقتصاد الغرب الاسلامي